الطريق إلى الفردوس

(قصة تاريخية عن رحلة أديب)

بقلم: د. محمد رجب البيومي
مصر

-١-

جلس أبو العلاء صاعد بن الحسن إلى أستاذه أبي علي الفارسي وعلى وجهه علامات الحزن، وأبو علي يعرف في تلميذه بشاشة المحضر، ولطف النادرة، كما يقدر مكانته في اللغة والأدب، ويراه مع إمعانه في الغريب النادر من كتب اللغة شاعراً ذا بديهة، وقل أن يجتمع الشعر الرقيق لعالم لغوي يحفظ الغريب الوحشي، ويتألف أوابد الكلمات، فلم يشأ أبو علي أن يتغافل عن إحساسه نحو صديقه وتلميذه، وقال له في ملاطفة:

إيه يا أبا العلاء ؟ ما لي أراك على غير عهدك حزينا كاسف البال ؟ فسكت صاعد دون أن يجيب، فصاح به أستاذه: إنك لتعاني هما دخيلا، ولا بد أن أقف عليه، فقال صاعد في ألم:

سيدي! لقد ضاقت عليّ منافذ الرزق ببغداد، وما تركت الموصل إلا طامعا في رفاهية العيش، ونعيم الحياة، وقد لزمت الأعراب في البادية سنوات عدة حتى جمعت ما لديهم مما لم يتفق لأحد، وعكفت على دواوين الشعراء، حتى ألممت بالدقيق المستتر مما لا يعرفه الخاصة بله العامة، وها أنذا أتحسس موضعي ببغداد فأجده خشن المضجع، مليئا بالشوك، وكأني أتقلب على الإبر فما أهنأ بمقام!.

قال أبو علي الفارسي: ألست تجد من الأحباس الموقوفة على طلاب المسجد، ورجال الحلقة ما يشبع جوعتك، ويكسو جسمك، ويروي غلتك، ففيم الملام؟.

فزفز صاعد زفرة حارة! وقال: كنت أجد ما يشبع

جوعتي في الموصل، وما جئت بغداد، إلا لأنعم بالقصور وأتصدر المجالس، وأسحب ذيول الرخاء ! كيف لي بالصدارة في بلد حافل بكبار العلماء .. بأبي علي الفارسي وبعلي بن عيسى الربعي، وبأبي الفتح بن جني، وبالخطابي، وصفوة الأماثل من الفضلاء!

فوجئ أبو علي الفارسي بما قاله تلميذه، وكان يعتقد أنه يطلب اللغة والأدب لذاتهما، أما أن يكونا باب الرفاهية والترف، فهذا ما غاب عنه، ولم يشأ أن يلومه، فهو أدرى بتطلعات النفس الطامحة، وأعلم بما يشتعل في صدور الشباب من آمال، ففكر قليلا ثم قال في تؤدة:

أبا العلاء، أتعرف شيئا من أمر أبي علي القالي؟

فصاح صاعد: ومن ذا لا يعرف أبا علي القالي صاحب البارع، ومؤلف الأمالي، وعالم الأندلس!

فضحك أبو علي الفارسي، وقال: عالم الأندلس ! لقد قلتها ياصاعد، كان أبو علي القالي ببغداد هنا على مثل حالك، وكان يهمّ بالصدارة فيعوقه شيوخه الكبار ممن ذاع صيتهم العلمي من قبله، فرأى أن يترك المشرق ومن فيه، ثم رحل إلى الأندلس، فكان أكبر رأس في اللغة والرواية. وقد اجتباه الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر، ورفع مكانته في القوم، وله جمع كتاب الأمالي، بعد أن ألقاه دروسا في مسجدي قرطبة والزهراء، فإذا كنت ذا همة كهمة أبي علي القالي فهيا!

لمعت عينا صاعد، كمن بوغت بأمر مفاجئ، ولكن السرور لم يلبث أن سطع في وجهه، وقال لأبي علي الفارسي ؟ وهل ترى أن لدي من العلم ما يرفعني إلى منزلة أبي علي؟.

فتبسم أبو علي الفارسي وقال: ما حدت عن الحق في شهادة علمية، أبو علي القالي صاحب رواية ولغة يقف علمه عندهما، وأنت تعرف اللغة والرواية وتزيد عليه نظم الشعر الفائق، وقوة البديهة الحاضرة، فلئن وفقك الله إلى الرحيل فستبلغ مكانة القالي، بل ستزيد عليه ، إذ تعرف بمدائحك الشعرية كيف تصل إلى منافذ القلوب ؟ وستستر ضعف أبي علي القالي!

قال صاعد:

أأستر ضعف أبي علي ؟ كيف هذا ؟

فصاح أبو علي الفارسي: أتعقل أم تتغافل ؟ كلنا يعلم أن الخليفة عبدالرحمن الناصر قد احتفل بمقدم ملك الروم، وصاحب قسطنطينية بقصر الزهراء، وجمع الحشود من أعلام الدولة ووزراء الخلافة، وشيوخ الأدب والعلم هناك، ثم طلب من أبي علي القالي أن يلقي خطبة الاستقبال، فصعد مضطربا، وما نطق بشيء، لولا أن تدارك الموقف المنذر بن سعيد قاضي القضاة فشفى وكفى ! أفلو كنت مكانه في هذا اليوم، أفما ستنثر اللآلئ يا صاعد!

فتألق وجه أبي العلاء، وقال: إن كلمة الاستقبال ليست معجزة، وإنما هي قول يذاع؟ واقترح ما تشاء علي الآن من فنون الخطب، لترى ما يرضيك!

فقال أبو علي الفارسي: لم أقترح عليك الذهاب إلى الأندلس إلا وأنا أقدر ما حباك الله به من هبات علمية وملكات أدبية لا تقف عند حد ؟ وهناك شيء آخر أعلم أنه سيذلل لك الطريق.

فتعجل صاعد يقول: أي شيء ؟ بربك أسعفني بما لديك، فقد فتحت أمامي طريقاً أرجو أن يعود علي بما أشتهيه!

فقال أبو علي الفارسي: إن صاحب الأمر في الأندلس اليوم هوالمنصور بن أبي عامر وقد حاول أن يتشبه بالناصر في احتفائه بالأدباء، والتفافه بالعلماء، لترسخ مكانته في القلوب، ولشعرائه المادحين حظوة لديه لا تفوقها حظوة قائد أو وزير، فإذا علم بمقدمك، وقدمت في مجلسه ما ينبئ عن براعتك، فلك الجزاء الأوفى والصدارة الأكيدة، أما تعرف قصة ابن أبي عامر مع الشاعر الرمادي؟

انتبه أبو العلاء بكل قواه، وهو يقول لأستاذه، لم يصلني شيء عن الشاعر الرمادي، ولا أدري قصته مع صاحب الأندلس ابن أبي عامر ؟ فهل تتفضل عليَّ بسردها !

قال أبو علي الفارسي: على الخبير سقطت فاسمع:

جلس المنصور بن أبي عامر يوما مع حاشيته من أهل السياسة والأدب، فقال لشاعره أبي يوسف الرمادي: كيف ترى حالك معي يا أبا يوسف ؟ فتعجل الشاعر قائلا: فوق قدري، ودون قدرك!! فأطرق المنصور كالغضبان، فانسل الرمادي متحيرا، وندم على ما قال، متوهما أن المنصور سيناله بقوارص العقاب، وجعل يقول في نفسه، لقد ضيعت كل مدائحي، وما عرفت أن الحق يضيع عند الملوك إذا لم يوافق أهواءهم ؟ أنا فريسة الانتقام.

ولما خرج الرمادي في أسفه الهالع، تبرع أحد الحاضرين، فقال موجها حديثه للمنصور: وصل الله لمولانا الظفر والسعد، إن هذا الصنف من الناس صنف زور وبهتان، لا يشكرون نعمة، ولا يرعون ذمة، كلاب من غلب، وأصحاب من أخصب، وأعداء من أجدب، وحسبك أن يقول الله فيهم ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ ﴾ والابتعاد منهم أولى من الاقتراب، وما ظنك بقوم يستحسن منهم الكذب، ولا يؤاخذون به في شيء.

فرفع المنصور رأسه وقد اسود وجهه، وظهرت عليه علائم الغضب المفرط، ثم قال: ما بال أقوام يشيرون في شيء لم يستشاروا فيه، ويسيؤون الأدب بالحكم فيما لا يدرون ؟ أيُرضي أم يسخط؟ وأنت أيها المنبعث للشر، دون أن يبحث، قد علمنا سوء نيتك في أهل الأدب عامة، وفي الشاعر الرمادي خاصة، ولسنا نبلغك الغرض في أحد، فقد ضربت في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب، وإني ما سكت عند قول الرمادي إنكارا عليه، بل وجدت له كلاما يجل عن الأقدار الجليلة، وتعجبت كيف فاه به على البديهة، وإياكم أن يعود أحدكم إلى الكلام في شخص قبل أن أطلب منه الرأي، فلا تحكموا في أوليائنا، ولو أبصرتم منا ما يدل على التغير، فإنا لا نتغير بغضا وانحرافا، بل تأديبا وإنكارا، ومن نريد إبعاده رميناه وطرحناه، ووالله لو سمعت كلام أحدكم في الآخر، لتفرقتم أيدي سبأ، وجونبت أنا مجانبة الأجرب، وها أنتم عرفتم جلية أمري.

ثم أمر باستدعاء الرمادي، وقال له: أعد كلامك، فارتاع وجزع، فقال له: الأمر على خلاف ما قدرت، فثوابك أولى من عقابك. وأمر له بمال جزيل، وخلع عليه أحسن الخلع، ثم اتجه إلى من تكلم في شأن الشعراء فقال: والعجب من قوم يقولون: الابتعاد من الشعراء أولى من الاقتراب، نعم، ذلك لمن ليس له مفخرة يريد تخليدها، ولا أياد يرغب في نشرها، فأين الذي قيل فيه:

إنما الدنيا أبو دلف ... بين مبداه ومحتضرهْ
فإذا ولىّ أبو دلف ... ولت الدنيا على أثرهْ

أما كان في الدنيا أحسن من أبي دلف، ولكن شاعره خلد له ذكرا، وأبقى له ثناء يتردد على الأحقاب!

سكت أبو علي الفارسي، فرأى وجه أبي العلاء صاعد يتقد حماسة كالجمرة المشتعلة، ونهض ليقبل يد أستاذه. ويقول له: جزاك الله خيرا، ومثلي لن يضيع عند المنصور بن أبي عامر، وقد عشق الأدب، وفهم رسالة الشعر في إحياء المآثر وتدوين المكرمات، لن أتقاعس منذ اليوم، وسأرحل إلى الأندلس من الغد، فليس لدي زوجة تخدعني وتثبطني، ولا أولاد أخشى عليهم نوائب الأيام. ولا أم ولا أب، أنا غريب في بغداد، فلأكن غريبا في الأندلس ! وقد يكون ما هنا دون هناك!.

كِتَابُ الأمَالِي
مع
كتابي: "ذيل الأمالي" و"النوادر"
ثلاثتهم
تحقيق
مؤسسة الكتب الثقافية

-٢-

خف صاعد إلى قرطبة، وتقدم إلى مجلس المنصور، وأنشده بعض ما هيأ لهذا المقام من مديح، وكان بالمجلس شعراء المنصور وأدباء العاصمة، وشيوخ حلقاتها العلمية، فرأوا من إقبال المنصور وحسن احتفائه بالزائر الجديد ما أوقد قلوبهم غيظا، وعرف الشعراء أن غريبا وافدا يوشك أن يزيحهم عن مكان الصدارة، كما عرف شيوخ الأدب والعلم أن الوافد القادم لم يكن حسن التأتي للأمور، فقد أهمل الاتصال بهم، وأظهر من الغرور في حضرة المنصور ما يدل على خفة وطيش، ولئن تمكن من قلب الحاجب المنصور، مع ما يظهر من غروره المتعالي ليكونن أداة قطع لا قنطرة وصل، ثم إن المنصور قال له في أول مجلس عرفه به، إنه يأمل أن يؤلف كتابا في اللغة والأدب يكون نظيرا لكتاب الأمالي الذي ألفه أبو علي القالي من قبل للخليفة الناصر، حتى يشيع عن الحاجب ما شاع عن الخليفة من حب للعلم والعلماء، ومن كتب صدرت عن توجيهه وانتشرت برعايته وتأييده! على أن الفرق في نظر هؤلاء الأدباء بين القالي وصاعد بعيد جد بعيد، فأبو علي القالي شيخ متواضع، لا يكاد

يفارق مجلسه العلمي في مسجدي قرطبة والزهراء إلا إلى منزله، فإذا زاره أحد من أهل الأندلس فهم طلاب العلم وتلاميذ الحلقة، ولم يُشهد القالي في قصر الخلافة إلا في محفل رسمي، دعي له بالاسم، وحدد له فيه المكان، فيجيء على ثقل واستكراه، وكأنه يحمل عبئا ثقيلا يود الخلاص منه، أما صاعد فكل همه أن يلازم المنصور، وأن يكون مع حاشيته، ولولا الخوف من زجره لآثر أن يبيت بقصر الحاجب مع خاصة خاصته، فكيف يصبر أدباء قرطبة وشعراؤها على نزق هذا الضيف الثقيل، لقد أذاعوا عنه أنه غير بصير بمسائل النحو واللغة، والحق أن صاعداً كان إلى الأدب أقرب منه إلى العلم ، ولكنه يدعي التفوق في كل فن، فإذا نوقش وضيق عليه الخناق افترى وكذب! وله ادعاءات عريضة لا تروج على المتخصص الدارس إذا راجت على المنصور الحاجب، وقد أكثر هؤلاء من تزييف بهرجه، ووصموه بالكذب والافتراء، ولكنهم رأوا المنصور يعجب بأمداحه الشعرية، أفتكون هذه أيضاً منتحلة لقد تجرؤوا على ذلك، وحاولوا أن يقنعوا المنصور أن الشرقي الوافد يحفظ من آثار المشارقة، وفيهم مئات الشعراء ممن لم تبلغ قصائدهم أهل الأندلس، يحفظ من آثار هؤلاء ما ينسبه إلى نفسه دون أن يجد من يجبهه بالادعاء، والمنصور حائر فيما يقال، يسمع المديح من صاعد فيترنح له عجباً، ثم يضايقه أن يكون ما سمع مما قيل في سواه من عظماء الشرق، وانتحله صاعد انتحالا، أين الدليل الراجح، وأين شعاع ينير في غياهب الشك ليجلو الحقيقة للعيان!

لقد فرح خصوم صاعد حين جعلوا المنصور يتردد في أمر الشاعر بين الشك واليقين، فهو إذن قد فارق منطقة الاعتقاد الجازم، وعليهم أن يصطنعوا الحيلة الماكرة، ليجعلوا الشك يقينا، والتردد ثباتاً، وفيهم من يقدر على الاحتيال، وما أشد ضرام الحاقد حين يلتهب بين جوانحه فيضطره إلى الكيد دون اتئاد.

كان ابن العريف أحد هؤلاء الحقدة الملتهبين، وقد أمكنته الفرصة، فقام بمكيدة تثبت ادعاء صاعد إذا صحت وقائعها وطبيعي أن يتقن حبكها بحيث تنطلي على المنصور، ومن حديثها أن ابن أبي عامر جلس في صدر إيوانه، وحوله حواريوه من الوجهاء والشعراء، فأهديت إليه وردة في غير وقتها، وكانت براعمها مغلقة لم تتفتح بعد، فقال صاعد على البديهة حين رأى إعجاب المنصور بالوردة الغضة:

أتتك أبا عامـــر وردة ... تذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر ... فغطت بأكمامها رأسها

فسر المنصور، ومدح صاعداً فأطال، واشتعل قلب ابن العريف بالغيظ، فدنا من المنصور، وقال: هذان البيتان مشتهران بالمشرق، وقد سمعتهما من بعض البغداديين حين كنت بمصر، وهما عندي ظهر كتاب بخطه، فقال المنصور: أرني كتابك ولا تبطئ.

فخرج ابن العريف مسرعا، وحرك دابته لتجري أوسع ما يكون الجري حتى أتى مجلس الشاعر ابن بدر، وكان أحسن أهل زمانه، سرعة بديهة، وحسن انتباه، فوصف له ما جرى، وطلب منه أن يقول أبياتاً يدس فيها هذين البيتين. وكان ابن بدر ممن يحمل الحقد لصاعد، ويراه قد سلب مكانه لدى المنصور، إذ لا يقل عنه سرعة ارتجال، ولطف حاضرة، فصادف مطلب ابن العريف قبولا من نفسه، وصنع على الفور هذه الأبيات:

غدوت إلى قصر عباسة ... وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها وهي في خدرها ... وقد صرّع السكرُ أُنّاسها
وقالت أسارُّ على هجعة ... فقلت: بلى، فرمَتْ كاسها
ومـدت يديهـا إلى وردة ... يحاكي لك الطيب أنفاسُها
كعذراء أبصرها مبصر ... فغطت بأكمامها راسها

فسار ابن العريف بها، وعلقها على ظهر كتاب بخط مصري، ومداد أشقر، ودخل بها على المنصور بعد أن تفرق الجمع، فاشتد به الغيظ، وعزم على أن ينتقم، ولكن كيف!؟

لقد علم صاعد بما كان، فاستنجد بديهته ليكتشف الاحتيال، وحاول أن يتصل بابن أبي عامر، فلم يأت له الإذن، فقال لبعض أصدقائه من رجال القصر، أبلغوا الملك الحاجب أن الحديث مفتعل، فمن العباسة هذه؟ ومن قائل الأبيات ؟ إن التاريخ لا يعرف غير العباسة أخت الرشيد، وهل يعقل أن يزورها شاعر لا يعرف اسمه؟ فيقول عنها ما يكشف أمرها للناس، ثم هي تقبل أن يزورها في قصر الخلافة، فتهدي إليه وردة، وكأنها تداعب حبيبا في مجلس أنس ! هذا ما يستحيل أن يحدث، وعلى ابن العريف أن يقول لنا من العباسة ؟ ومن شاعرها الحبيب إذا استطاع !؟

وبلغت الشكوى المتظلمة أذن المنصور، وليس من السهل لدى المنصور أن ينزع الشك باحتمالات تتردد، فلا بد من اليقين الجازم، ولن يكون إلا بامتحان الشاعر في مجلس حاشد، حين يعد له منظرا لم يعرف من قبل، ثم يطلب منه أن يصفه على البديهة، وحينئذ لا يستطيع أن يستعين بشعر محفوظ، لأن المشهد طريف غير مألوف! لقد فكر المنصور في صنع طبق واسع الصفحة، غطته قطعة شفيفة من أوراق الزهر، لتظهر ما تحتها، ومن فوقها دمى من زهر الياسمين كأنها الجواري، ومن تحتها بركة ماء أُلقي فيها الدر مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح !! هل وجد هذا الطبق إنسان من قبل؟ وإن الخيال قد جاز بصاحبه أقصاه فهداه لا إلى الطريف بل إلى ما يشبه المستحيل ! نسيج من الورد، ودمى على شكل العرائس من الزهر، وبركة ماء بها اللآلئ اللامعة ! وحية تسبح وسط البركة دون أن تملك القدرة على اجتياز السطح الوردي الجميل! هذا ما أعده المنصور لامتحان الشاعر، وقد عقد مجلسا أحضر فيه جميع الندماء وأمر بصاعد أن يدخل فيرى ثم يصف!

قال المنصور لشاعره: هذا يومك يا صاعد، إما أن تسعد فيه معنا، وإما أن تشقى به عندنا، لأنهم زعموا أن كل ما تأتي به دعوى، وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق ما توهمت أنه حضر بين يدي ملك قبلي فصفه بجميع ما فيه، فقال صاعد بديهة – ولله هو –

أبا عامر هل غير جدواك واكف ... وهل غير من عاداك في الأرض خائفُ
يسوق إليك الدهرُ كل غريبة ... وأعجب ما يلقاه عندك واصفُ
وشائع زهر صاغها هامر الحيا ... على حافتيها عبهر ورفارفُ
ولمّا تناهى الحسن فيها تقابلت ... عليها بأنواع الملاهي الوصائفُ
كمثل الظباء المستكنة كُنّسا ... تظللها بالياسمين السقائفُ
وأعجب منها أنهن نواظر ... إلى بركة ضُمّت إليها الطرائفُ
حصاها اللآلي سابح في عبابها ... من الرقش مسموم الثعابين زاحفُ
ترى ما تراه العين في جنباتها ... من الوحش حتى بينهن السلاحفُ

فدهش الحاضرون لروعة ما أتى به صاعد، وتهلل وجه المنصور، وكتب الأبيات بخطه، وكان إلى ناحية من الغطاء الوردي سفينة بمجاذيف لم يرها صاعد، وفي السفينة دمية على هيئة جارية، فقال له المنصور: أحسنت إلا أنك أغفلت ذكر المركب والجارية، فقال صاعد:

وأعجب منها غادة في سفينة ... مكللة تهفو إليها المهاتفُ
إذا راعها موج من الماء تتقي ... بسكانها ما أنذرته العواصفُ
متى كانت الحسناء ربان مركب ... تصرّف في يمنى يديه المجانفُ
ولم تر عيني في البلاد حديقة ... تنقلها في الراحتين الوصائفُ
ولا غرو أن ساقت معاليك روضة ... وشتها أزاهير الربا والزخارفُ
إذا قلتَ قولاً، أو بدهتَ بديهة ... فَكِلْني له. إني لمجدك واصفُ

فطرب المنصور، وأمر له بألف دينار، ورتب له في كل شهر ثلاثين دينارا، وألحقه بالندماء.

-٣-

جلس زيادة الله بن مضر وابن العريف وابن البتاني، وهم خصوم صاعد في قصر الحاجب، فجعلوا يتساءلون كيف يجرؤ هذا الشاعر على تأليف كتاب (الفصوص) في اللغة معارضا به كتاب أبي علي القالي، وهو كذوب يختلق الكلمات، ويرصد لها من المعاني ما لا يخطر على بال.

فقال ابن العريف: والعجيب أن المنصور يعرف عنه ذلك، وقد تأكده دون أن يعصف به ظن، ومع ذلك يستقبله أحسن استقبال.

فقال ابن مضر: أتقول إنه تأكد اختلاقه تأكدا، لا يعصف به ظن، متى كان هذا؟

فرد ابن العريف: أنسيت أني ما زلت أفتل للحاجب في الذروة والغارب، حتى جعلته يمتحن صاعدا، فيأتي بلفظ لا وجود له، وسيريه بإجابته أنه مختلق كذوب!

قال ابن مضر: ومتى تم هذا ؟ وأين كنت؟

فقال ابن العريف: تم ذلك حين كنت غائبا في إشبيلية، ففي بعض مجالس المنصور، وفد إليه كتاب من عامله ببعض البلاد، يذكر فيه أن الأرض قد قُلّبت وزُبّلت، فضحك الحاجب لهذا التعبير، وأسر في نفسه أن يمتحن صدق صاعد، فقال له: هل وقع لك كتاب (القوالب والزوابل) لبرمان بن زيد، فرد من فوره يقول: لقد رأيته في بغداد، في نسخة لأبي بكر بن دريد بخط كأكرع النمل، وفي جوانب النسخة علامات بأوضاع كذا وكذا، فضحك المنصور متهكما، وقال له: أما تستحيي يا صاعد، هذا كتاب عاملنا فلان، يذكر فيه أن الأرض قد قلبت وزبلت، فأخذت من قوله ما سألتك عنه، فجاوبت بالبهتان، ولا كتاب يوجد تحت هذا العنوان!

فأسرع ابن البتاني يقول: لم يكن امتحان واحد بل تلاه امتحان وامتحان!

فقال ابن مضر: وأنا لا أعرف شيئا مما كان، بالله فلتذكرا ما تعلمان.

قال ابن البتاني: جلس المنصور وأمامه تمر يأكل منه، ومعه صاعد ينظر إليه ولا يأكل، فأراد الحاجب أن يعبث به، فقال ماهو(التمركل) في كلام العرب ياصاعد،وهل مرّ بك هذا اللفظ، فانطلق المسكين يقول: (تمركل) الرجل أي التف بكسائه، فصاح المنصور: كفى، فقد اخترعت اللفظ، وأنا آكل التمر، فلم يُخْذَلْ صاعد وقال: اخترعت ما وافق كلام العرب، فما في هذا؟

قال ابن العريف، وثالثة أرويها: فقد بدا للحاجب أن يواصل سخريته بصاعد، فقال له بين أسئلة لغوية لها معانيها الحقيقية، ما معنى الخنفشار يا صاعد! وليس للخنفشار معنى، لأنه لفظ اخترعه المنصور لساعته، فسمع صاعدا يقول: الخنفشار حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب، وفي ذلك يقول شاعرهم:

لقد عقدت محبتكم بقلبي كما عقد الحليب الخنفشار

وضرب المنصور كفا بكف، وهو يقول له، قد افتريت، فاللفظ من عندي..

فقال زيادة الله بن مضر، يقف المنصور على افترائه المتكرر ويصطفيه، ما معنى هذا؟

فأجاب ابن العريف: المنصور واسع الإدراك، وهو لا يفرط في شاعر يصف أمجاده، ولا يهمه أن يجهل كلمات من غريب اللغة.

قال ابن مضر: هو لا يجهل فحسب، ولكنه يفتري!

فابتسم ابن العريف وهو يهمس ضاحكاً، لا يهم مولانا المنصور أن يكذب كاذب في اللغة، إذ ليس الكذب في هذا المجال بناقص من سطوته شيئا ! دعوا هذا المنحى فلا نتحدث فيه.. ثم إن صاعدا استغل كذبه في اختلاق أحاديث الحب، وأشعار الغرام، فصنع للمنصور كتابين أحدهما يتضمن قصة غرام الجواس بن فضل في ابنة عمه عفراء، والثاني يتضمن غرام ابن غيدقان في حبيبته الخنّوت، ويعلم الله أننا لم نسمع بالجواس وابن غيدقان والخنّوت من قبل، كما سمعنا بقيس وليلى، وجميل وبثينة، وعروة وعفراء، وكثير وعزة، وابن ذريح ولبنى، فأطرف صاعد المنصور بما نجهل جميعا، وقد ملأ الكتابين بما جذب الحاجب إلى تلاوتهما، حتى خصص من يقرؤهما بحضرته في أوقات معينة إذ بلغ من سروره بالقصتين المخترعتين أنه نسخ منهما عدة كتب ليطرف بهما من يحب، أفيجفوه بعد هذا..

سكت القوم سكوتا طال بعض الوقت، حتى قطعه ابن البتاني بقوله: وهل نسكت على ذيوع كتاب الفصوص، وأكثره مما لا أصل له؟!

فقال ابن العريف: تركنا حديث الفصوص دون أن نتمه، إذ استطردنا إلى خواطر متتابعة، لقد أنقذنا الله من شره، لأن صاعدا حين أتمه، دفعه لغلام له، يحمله بين يديه، وعبر به نهر قرطبة، فزلت قدم الغلام، فسقط في النهر، وسقط معه الكتاب، وقد قلت في ذلك:

قد غاص في البحر كتاب الفصوصْ وهكذا كل ثقيل يغوصْ

وطار البيت إلى مولانا المنصور فابتسم، وتلاه على صاعد، فأدركته بديهته التي نحار في أمرها وسرعان ما ردّ بقوله:

عاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوصْ!

فقال زيادة الله، ولماذا نخشى على اللغة إذن بعد أن فقد كتاب الفصوص، لقد هان الأمر، فهيا يا قوم.! ■